بسم الله الرحمن الرحيم

التأسيس الديني للثورة المعرفية القادمة

بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، محمد بن عبد الله، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وبعد:

قال الله تعالى:

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ١٦٤﴾ (آل عمران).

نستنتج من هذه الآية الكليات الضرورية التي يقوم عليها دين الإسلام، ومكانة *"العلم"* فيها دون الخوض في منهج الاستنباط، وهو متاح ومنشور في مجلة تفكّر التي كان يصدرها إمام، وهي:

أولا؛ ***"العلم"*** في مستواه الكلي (يتلو عليهم آياته) المتعلق بالتفكّر في خلق السماوات والأرض، والتدبّر في القرآن الكريم، و***"العلم"*** في مستواه الجزئي العملي (ويعلمهم الكتاب والحكمة)، وهي السنة النبوية، القولية والعملية. هذا العلم في كلّيته يتفاعل سببيا مع النفس البشرية، بفجورها وتقواها، ليقود إلى الكلّية الثانية، وهي:

ثانيا؛ ***"الإيمان"*** بالله تعالى، وما يقتضيه من تزكية النفس (ويزكيهم).

ثالثا؛ ***"النفس"*** المتحصنة بالعلم، والمتزكية بالإيمان تباشر ما تعلمته من سنة قولية وعملية في تحقيق العمل الصالح في الأرض، وهو معنى الحكمة. العمل الصالح في الأرض يقوم على الابتلاء في زينة الحياة الدنيا (المال، البنون). لذلك فإن الكليّتين المتبقيتين هما:

رابعا؛ ***"المال"***، ويشمل الموارد الطبيعية، وما عملته يد الإنسان فيها من قيمة مضافة بالإنتاج، من أجل الاستهلاك، والاستثمار لزيادة النماء.

خامسا؛ ***"البنون"***، ويشمل ذلك العلاقات الزوجية بين الذكر والأنثى بما يؤدي إلى التكاثر الرحمي، وحفظ النوع البشري على الأرض.

هذه الكليات الخمس، "العلم"؛ "الإيمان"؛ "النفس"؛ **"المال" و"البنون"** عليها قوام حياة الإنسان المؤمن، وهو مطالب بحفظها عينا. لكن عندما يتفاعل المؤمنون مع بعضهم في الحياة

بمقتضى هذه الكليات ينبثق عن هذا التفاعل الاجتماعي "**مجتمع التوحيد**" بنظمه الاقتصادية، والبيولوجية الرحمية، والسياسية، والثقافية. وهذا هو الدين المُقام في الواقع، وقد أمرنا الله تعالى أن نقيم الدين ولا نتفرق فيه. لكن إذا نظرنا إلى "الإيمان" كممثل لمعتقد الإنسان جملة فسوف نرى بوضوح أن هذه الكليات الخمس هي التي عليها مدار حياة كل إنسان، وكل مجتمع إنساني على هذه الأرض، وأن أي فرد، أو مجتمع لا يقوم بحفظها فإن مآل أمره إلى اضطراب. يتكون نظام الاجتماع الإنساني الكلّي من هذه الكليات الخمس، وعلاقات التفاعل الداخلي بينها، والتفاعل الخارجي مع بيئتها، ويظل حاكما لمراحل التطور الإنساني، مدا وجزرا، إلى قيام الساعة. يشهد التاريخ أن المنظومة التوحيدية من هذه الكلّيات عندما تفاعلت مع الزمان والمكان في مجتمع المدينة، في العهد النبوي، ثم في القرون التي تلته، أثمرت حضارة فريدة في العلم والإيمان والعمران.

ما تقدم كان، وما زال، هو جوهر رسالة كل الأديان السماوية، وجوهر دعوة أهل الحكمة والعلم في كل مجتمع إنساني عبر التاريخ حتى أطلت علينا الحضارة الغربية المعاصرة بفلسفتها المادية للعلم ابتداء، وللحياة تبعا، فكان الفصام النكد الذي تعلمون بين العلم والإيمان، وبين الحكمة والعمران. ونتج عن ذلك الفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام، والمعيشة الضنكة كنتيجة طبيعية للتولي عن المنهج الرباني:

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ٢٢﴾ (محمد)

الآن، بعد قرون من الحصاد المر للحضارة الأوربية، يتلمس العلماء في الغرب طريقهم إلى الرشد المعرفي، وتنهض فيهم الدعوة إلى تجاوز الفلسفة المادية للعلم بما تراكم من شواهد تجريبية لا تستطيع هذه الفلسفة، بمناهجها المهيمنة على التخصصات العلمية، أن تجد لها تفسيرا. لذلك تتسارع الدعوة إلى رؤية علمية جديدة للعالم سموها "ما بعد المادية"، احتشد لها كبار علماء الطبيعة، وعلماء النفس، وعلماء الأديان في جامعات الغرب يبلورون هذه الرؤية العلمية الجديدة عبر المؤتمرات العلمية، والدوريات المتخصصة، والنشر العلمي بكل أنواعه. هذه الرؤية العلمية الجديدة تجعل عالم الروح والوعي الإنساني، وعالم الغيب مرتكزا علميا للمعرفة الكونية يتجاوز في أهميته المرتكز المادي الذي كان، وما يزال هو أساس المعرفة الإنسانية.

لقد رأيت أن من الضروري أن يلم الزملاء الكرام بأهم القضايا التي تطرحها هذه الرؤية العلمية الغربية الجديدة حتى يتبين لهم أنها حقا ليست بجديدة، بل هى العود الحميد إلى مرافئ الرؤية الدينية للعلم وللعالم التي أجملناها أعلاه، وقد أكدوا هذه الحقيقة بأنفسهم. وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك أولى من المصادر الإسلامية للمعرفة، وأقدر من العلماء المسلمين للقيام بمهمة الريادة في العلم في المرحلة الجديدة من الحضارة الإنسانية التي تتشكل الآن بصورة دراماتيكية. بل، في حقيقة الأمر، هي بضاعتنا وقد ردت إلينا، فلا ينبغي للعلماء المسلمين التثاقل

إلى الأرض تحت أي ذريعة من الذرائع، بل نفرة في سبيل الله تجعل من مداد العلماء كُفأ لدماء الشهداء.

الآن أستعرض معكم أهم خلاصات هذه الفلسفة العلمية التي أسموها "ما بعد المادية"، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

1- ليس هناك نشاط فكري للإنسان، بما في ذلك العلوم، يستطيع الهروب من افتراضات قبْليّة، لا يمكن إثباتها من داخله، تكون بمثابة الخلفية الأيديولوجية للباحثين الذين يعملون في ذلك الإطار الفكري.

2- رؤية العالم العلمية المعاصرة تقوم على الفلسفة المادية التي تدعي أنه لا توجد في الكون حقيقة سوى المادة (matter)، وأنه يمكن فهم الظواهر المادية المعقدة من خلال تخفيضها (reduction) إلى عناصرها الأولية، والتفاعل الذي يتم بين هذه العناصر.

3- تحولت هذه الفلسفة العلمية خلال القرن التاسع عشر إلى أيديولوجيا عرفت بالمادية العلمية (scientific materialism).

4- كان من استنتاجات هذه الأيديولوجيا العلمية أن النفس (العقل، الوعي) الإنسانية (human consciousness) هي نتيجة من نتائج عمل المخ المادي لدى الإنسان، وأن أفكار الإنسان لا تأثير لها على مخّه، أو جسده، أو أفعاله، ومن ثم فلا تأثير لها على الكون المادي.

5- هيمنت فلسفة المادية العلمية على المجتمع العلمى خلال القرن العشرين حتى اعتقد غالبية العلماء أن هذه الفلسفة المادية هى ثمرة تجارب علمية، وأنها تأسست على الدليل التجريبي، وأنها وحدها تمثل الرؤية العقلانية للعالم.

6- المنهج العلمي التجريبي الذي تأسس على هذه الفلسفة المادية كان ناجحا جدا في زيادة فهمنا للطبيعة، وكذلك في زيادة قدرتنا على التحكّم، وزيادة حريتنا من خلال التقدم التكنولوجي الذي تحقق.

7- الهيمنة شبه المطلقة للرؤية العلمية المادية أدت إلى تضييق خطير على العلوم، وإعاقة للتطور العلمي باتجاه الدراسة العلمية للعقل، والوعي الإنساني، ولأبعاده الروحية. نتج عن ذلك فهم شائه وفطير عن أنفسنا، وعن موقع الإنسان في هذا الكون.

8- إن العلوم هي في المقام الأول منهج غير دغمائي، ومنفتح لتحصيل العلم عن الطبيعة من خلال الملاحظة، الفحص التجريبي، ثم التفسير النظري للظواهر. إن المنهجية العلمية غير متطابقة مع المادية، ولا ينبغي إلزامها بأي نظام عقدي معين، أو دغمائيات، أو أيديولوجيا.

9- اكتشف علم الفيزياء في نهاية القرن التاسع عشر ظواهر تجريبية لا يمكن تفسيرها من خلال علم الفيزياء الكلاسيكية. أدى ذلك في أوائل القرن العشرين إلى ظهور تخصص ثوري في الفيزياء عرف بفيزياء الكم (quantum physics). هذا العلم شكك في الأصل المادي للكون من خلال إثباته أن الذرة وما دونها ليست لها صلابة مادية، أي انها لا توجد بصورة يقينية في مكان محدد، وفي زمان محدد. الأهم من ذلك أن فيزياء الكم أدخلت ضمن بنائها المفاهيمي العقل، أو الوعي الإنساني عندما وجدت علاقة قوية بين الجسيمات (particles) التي تجري ملاحظتها وبين الباحث الذي يقوم بالملاحظة. أحد التفاسير، وقد تم تأييده تجريبيا، يقول إن هذا يدل على أن لوعي الباحث تأثير في إيجاد الأحداث الفيزيائية التي يقوم بملاحظتها، وأن ما يدور في العقل البشري يمكنه التأثير على العالم المادي.

هذه النتائج توحي بأن العالم المادي لم يعد وحده المشكّل للحقيقة الكونية، وأنه لا يمكن فهمه دون مرجعية العقل، أو الوعي الإنساني.

10- لقد أثبتت الدراسات في مجال علم النفس أن النشاط العقلي الواعي للإنسان له تأثير سببي على سلوكه، وعلى نظامه الفسيولوجي المرتبط بالدماغ، وهذا يفند الدعوى المادية في هذا المجال.

11- تشير الدراسات في مجال الظواهر المعروفة بالبِسي (psi)، وهو تأثير نفساني يتولد دون مسبب، أو منبه خارجي، أن الإنسان يمكنه تلقي معلومات ذات معنى دون استخدامه الحواس المعتادة، وبطرق تتجاوز محددات الزمان والمكان. كذلك تبين هذه البحوث أن الإنسان يمكنه عقليا التأثير من مسافات بعيدة على الأدوات المادية، والكائنات الحية بما في ذلك الإنسان. كذلك أثبتت بحوث البسى أن العقول التي تفصل بينها مسافات بعيدة يمكنها الاتصال ببعضها لحظيا دون وسيط مادي، ودون انقطاع مهما بعدت المسافة بينها. لقد أصبحت هذه الأحداث من الكثرة بحيث لا يمكن وصفها بأنها مجرد حالات شاذة، أو استثناءات عن القوانين الطبيعية، ولكنها تدل على الحاجة إلى توسعة الإطار التفسيري للعلوم الذي لم يعد ممكنا تقعيده على الفلسفة المادية وحدها.

12- أثبتت تجارب ما يسمى بالاقتراب من الموت (NDE) أن هناك نشاطا عقليا واعيا من قِبل الأشخاص الذين أصيبوا بصدمة قلبية حادة (cardiac arrest) أثناء التوقف المؤقت لنشاط القلب والدماغ. حكى هؤلاء الأشخاص عن تجارب وجودهم خارج أجسادهم، ورؤيتهم لما يدور حولهم، ووصفهم الدقيق لأمور تم التأكد من صحتها بصورة مستقلة. كذلك حكى هؤلاء الموتى طبيا عن تجارب روحية عظيمة عاشوها خلال موتتهم المؤقتة هذه.

13- التجارب المعملية المتحكم بها قد وثّقت أن الباحثين المتدربين على الوساطة الروحية، أي يتواصلون مع أرواح الموتى، يمكنهم أحيانا الحصول، من خلال هذه الوساطة الروحية،

على معلومات عالية الدقة عن أشخاص قضوا نحبهم، ما كان لهم الحصول عليها من مصدر آخر. هذا يؤكد أن النفس (العقل، الوعي) لها وجود مستقل عن الدماغ المادي.

14- هناك من العلماء والفلاسفة من أصحاب القناعات المادية من يرفض هذه الظواهر غير المادية لأنها لا تتسق مع رؤيتهم المادية للعالم. إن نبذ إجراء بحوث للطبيعة تأسيسا على فلسفة ما بعد المادية، أو رفض نشر نتائج علمية قوية تؤيد وتدعم هذا الإطار البحثي للعلوم، هو نقيض الروح الحقيقية للبحث العلمى التي تعني أن المعلومات التجريبية ينبغى التعامل معها بجدية. إن البيانات التي لا تتسق مع النظريات المفضلة، والعقائد السائدة لا يمكن طردها مسبقا. مثل هذا السلوك محله الأيديولوجيا لا العلم.

يرجى الانتباه إلى أن هذه الظواهر غير المادية تبدو شاذة فقط عندما يتم النظر إليها من المنظور المادي.

15- إن فشل النظريات العلمية المادية في تفسير الظواهر غير المادية أعلاه يقول لنا إنه قد آن الأوان لتحرير أنفسنا من القيود المُعْمية للأيديولوجيا المادية القديمة. آن الأوان لتوسيع مفهومنا للعالم الطبيعي، ولتبني رؤية العالم ما بعد المادية.

16- تدعو الرؤية العلمية ما بعد المادية إلى الآتي:

أ- العقل مكوّن جوهري للكون بجانب المادة، ولا يمكن استخلاصه منها، ولا يمكن اختصاره، أو خفضه إلى أي مستوى مادي أدنى.
ب- هناك ترابط عميق بين العقل والكون المادي.
ت- العقل يمكنه التأثير على الكون المادي، ويمكنه العمل بطريقة غير مرتبطة بالمكان مثل الجسم البشري، أو الزمان مثل الحاضر. إذن يمكن للنيات والرغبات والمشاعر التي يكون عليها الباحث ألا تنفصل بالكلية عن نتائج اختباراته التي يجريها، حتى تلك المحكومة بتصميم تجريبي مبني على التحكم والتعمية.
ث- يبدو أن العقول مطلقة، وقد تتوحد بطرق توحي بوجود عقل كلي واحد يتضمن كل العقول الشخصية، الفردية.
ج- إن تجارب الاقتراب من الموت الناجمة عن الصدمات القلبية توحي بأن الدماغ هو فقط جهاز إرسال واستقبال للنشاط العقلى، أي أن العقل يمكنه العمل من خلال الدماغ، ولكن الدماغ ليس منتجا له. إذا أضفنا إلى ذلك تجارب الوساطة الروحية فإن هذه الأدلة تؤكد بقاء العقل حيا حتى بعد الموت الجسدي، وأن هناك مستويات للوجود غير مادية.
ح- لا ينبغي للباحثين التخوف من البحث في عالم الروح، والتجارب الروحية ما دامت تشكل مكونا وجوديا أساسيا للإنسان.

17- إن علم ما بعد المادية لا يلفظ ولا ينكر الإنجازات العلمية الكبيرة التي أنجزت حتى الآن. إنه يدعو إلى توسيع القدرات الإنسانية للوصول إلى فهم أشمل لعجائب الطبيعة، ومن ثم إعادة اكتشاف أهمية العقل والروح كمكونات أساسية للكون. ما بعد المادية تستوعب وتتجاوز المادة إلى عالم الروح.

18- هناك آثار بعيدة المدى للإطار النظري لما بعد المادية، ذلك أنه سيعيد للإنسان كرامته، وعزته، وقوته من حيث هو إنسان، وكباحث علمى. كذلك فإن تأكيد العلاقة العميقة بين الإنسان والطبيعة من جانب الرؤية ما بعد المادية يجعلها ترتقي بالوعي البيئي للإنسان، وبالمحافظة على البيو سفير. كذلك فإنه ليس بالقول الجديد، وإن كان منسيا، أن الفهم غير المادي للوجود قد يكون هو أساس الصحة، والحياة الطيبة للإنسان. هذا الفهم هو أساس رسالة كل الأديان، والمناهج التأملية.

19- الانتقال من علوم الفلسفة المادية إلى علوم ما بعد المادية قد يكون حاسما في تطور الحضارة الإنسانية.

20- ندعو المجتمع العلمي ليمارس نقدا ذاتيا لافتراضاته القبلية المسبقة التي يتأسس عليها نشاطه العلمي، وأن ينظر في إمكان توسيع رؤيته المادية للعالم.

الزملاء الكرام،

إن الرؤية العلمية لما بعد المادية، التي لخصت أهم قضاياها أعلاه، توشك على الإقلاع كثورة معرفية سرعان ما تجتاح كل المجتمع العلمي العالمي، لأن رياحها تهب من محضن العلم والثورات المعرفية. إنه الغرب الذي شبع حتى التخمة من المادية، ويقول بلسان الحال والمقال: هل إلى خروج من سبيل. لقد ألقى المجتمع العلمي الغربي الكرة في ملعب المجتمع العلمي العالمي، ومنه المجتمع العلمي الإسلامي، بجامعاته وباحثيه، وينبغي أن نقبل التحدي ونبادر إلى الإسهام الأصيل في وضع خارطة الطريق الجديدة للعلم. ليس هناك مجتمعا علميا تكاملت عنده المصادر اليقينية للعلم كما تكاملت عند المجتمع المسلم، حيث مرجعية الوحي الإلهي، والكون الإلهي، وهي مرجعية تجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بين عالم الروح وعالم المادة، بين عالم الأحياء وعالم الأموات. ومن وراء كل ذلك يأتي المدد من خزائن الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وقد قال: ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء؛ وقال: واتقوا الله ويعلمكم الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم